أسبابُ هلاكِ الأممِ

ممّا يؤكّدُ أهمّيةَ المرجعيةِ الموحدّةِ للأمةِ الواحدةِ ، التي ينبغي أنْ ترتكزَ في تحقيقِ أهدافِها على صحةِ المعتقدِ ، وسلامةِ المنهجِ ، والعنايةِ بمصالحِ الأمةِ الكبرى ، ومقاصدِ الشريعةِ العظمى ، باعتدالٍ في الرؤى ، وتوازنٍ في النظرِ ، وأسلوبٍ عالٍ في الطرحِ والحوارِ ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

هذه الآيةُ تشير إلى المرجعيّةِ الواحدةِ للأمةِ الواحدةِ .

هذه الأحداث التي هزّت العالَمَ ألا تنتظمُها قوانين وسننٌ إلهيةٌ لا تتبدّلُ ، ولا تتغيّرُ ؟ قال تعالى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] .

فما هي أسبابُ هلاكِ الأممِ في ضوءِ القرآنِ الكريمِ وسنّةِ النبي عليه أتم الصلاة والتسليم ؟

من أبرزِ أسبابِ هلاكِ الأممِ : كثرةُ الفسادِ ، وكثرةُ الخَبَثِ ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾

[الإسراء : ١٦]

قال علماءُ التفسيرِ : « أمَرنا مترفيها بطاعةِ الله وتوحيده ، وتصديقِ رسلِه واتّباعِهم فيما جاؤوا به ، ففسقوا ، أي : خرجوا عن طاعةِ أمرِ ربِّهم ، وعصوه ، وكذّبوا رسلَه ، فحقَّ عليها القولُ ، أي : وجب عليها الوعيدُ ، فدمّرناها تدميراً ، وقد أكّدَ اللهُ التدميرَ بمصدره للمبالغةِ في شدةِ الهلاكِ الواقعِ بهم ، فإنْ قال قائلٌ : إنّ اللهَ سبحانه أسندَ الفسقَ في هؤلاء القوم بخصوص المترفين دون غيرهم في قوله تعالى :

﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ .

مع أنه ذكرَ عمومَ الهلاكِ للجميعِ ، قال المفسرون : « هناك جوابان :

الجواب الأول : أنّ غيرَ المترفين تبعٌ لهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

والجواب الثاني : أنّ بعضَهم إنْ عصى اللهَ ، وبغى ، وطغى لم ينكرْ عليه الآخرون هذه المعصية وهذا الفسق والفجور ، فإنّ الهلاكَ عندئذٍ يعمّ الجميعَ .

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وكما جاء في الحديث الصحيح عَن أمِّ المؤمنين زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا ، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ : فَقُلْتُ :

يَـا رَسُـولَ اللهِ ، أَنَهْلِـكُ وَفِينَـا الصَّـالِحُـونَ ؟ قَـالَ : نَعَـمْ ، إِذَا كَثُـرَ الْخَبَثُ »(١) .

فأوّلُ أسبابِ هلاكِ الأممِ : **كثرةُ الفسادِ في الأرضِ** ، وكثرةُ الخَبَثِ ، قال تعالى في كتابه :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم : ٤١] .

سببٌ آخرُ مِن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **الكفرُ بنعمِ اللهِ عز وجل** ، وعدمُ القيامِ بواجبِ شُكْرِها ، قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل : ١١٢] .

سببٌ ثالثٌ من أسبابِ هلاكِ الأممِ من خلالِ القرآنِ والسُّنةِ : **ظهورُ النقصِ والتطفيفِ في الكيلِ والميزانِ** ، ومنعُ حقِّ اللهِ ، وحقِّ عبادِه ، ونقضُ العهودِ والمواثيقِ ، والإعراضُ عن أحكامِ اللهِ تعالى ، هذه كلُّها مجتمعةٌ في حديثٍ شريفٍ يبيّنُ المرحلةَ التي وصلنا إليها .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

(١) البخاري (٣١٦٨) ، مسلم (٢٨٨٠) .

إلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »[١] .

وكأن النبيَّ ﷺ معنا يرى تقصيرَ الأمةِ الإسلاميّةِ .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **التنافسُ في الدنيا** ، والرغبةُ فيها ، والمغالبةُ عليها :

عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الأَنْصَارِيَّ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « فَوَ اللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ »[٢] .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ[٣] .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ،

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٠١٩) .

(٢) البخاري (٢٩٨٨) ، مسلم (٢٩٦١) ، الترمذي (٢٤٦٢) ، ابن ماجه (٣٩٩٧) .

(٣) مسلم (٢٥٧٨) ، أحمد (١٤٥٠١) .

فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا. . . »(١) .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **التعاملُ بالرِّبا ، وانتشارُ الزنا** : فإنّ هذا ممّا يخرّبُ البلادَ ، ويهلك العبادَ ، ويوجبُ سخطَ الربِّ عزّ وجل .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(٢) .

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . وانتشارُ الزنا سببٌ لظهورِ أمراضٍ لم تكن في الأممِ السابقةِ ، « لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا » ، عددُ المصابين بمرض الإيدز في العالَمِ يتجاوز أربعين مليونًا .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : تقصيرُ الدعاةِ في واجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ، وتقصيرُ الأمراءِ في إزالةِ المنكراتِ .

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ

---

(١) أبو داود (١٦٩٨) ، النسائي (١١٥٨٣) ، أحمد (٦٤٨٧) .
(٢) أحمد (٣٨٠٩) .

فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ لاَ يُغَيِّرُونَ إِلاَّ عَمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ »[١] .

وعن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَثَلُ الْمُدْهِنِ[٢] فِي حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا ، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا فَتَأَذَّوْا بِهِ ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ ، فَأَتَوْهُ ، فَقَالُوا : مَا لَكَ ؟ قَالَ : تَأَذَّيْتُمْ بِي ، وَلاَ بُدَّ لِي مِنْ الْمَاءِ ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ[٣] .

والتعبيرُ الحديثُ : نحن جميعاً في قارب واحد .

قال الإمامُ الغزالي : « الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ هو القطبُ الأعظمُ في الدِّينِ ، وهو الذي بعث اللهُ له النبيين أجمعين ، ولو طُوِيَ بساطُه ، وأُهمِلَ علمُه وعملُه لتعطَّلتِ النبوَّةُ ، واضمحلتِ الديانةُ ، وعمَّتِ الفتنةَ ، وفشتِ الضلالةَ ، وشاعتِ الجهالةَ ، واستشرى الفسادَ ، وخربت البلادُ ، وهلك العبادُ ، ولم يشعروا بالهلاكِ إلا يوم التنادِ . وقد كان الذي خِفنا أن يكونَ ، فإنّا للهِ وإنا إليه راجعون » .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **تركُ الجهادِ** ، والإخلادُ إلى الأرضِ .

---

(١) ابن ماجه (٤٠٠٩) .

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٥/ ٢٩٥) : « قوله : مثل المدهن ـ بضم أوله وسكون المهملة وكسر الهاء بعدها نون ـ أي : المُحَابي ـ بالمهملة والموحدة ـ والمدهن والمداهن واحد ، والمراد به من يرائي ، ويضيع الحقوق ، ولا يغير المنكر » .

(٣) البخاري (٢٥٤٠) .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ »(١) .

الأخذُ بأذنابِ البقرِ ، والرضا بالزرعِ علامةٌ على الإخلادِ إلى الأرضِ ، والانغماسِ في الملذّاتِ ، وتركُ الجهادِ هو سببُ الذلِّ والهوانِ .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **مخالفةُ أمرِ النبيِّ ﷺ** ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور : ٦٣] .

وقال الله عز وجل :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

أي : ما دامت سنّةُ النبيِّ ﷺ قائمةً في حياتِهم ، في علاقاتِهم ، في كسبِ أموالِهم وإنفاقِها ، وفي تجارتِهم ، في بيعِهم وشرائِهم ، في علاقاتِهم ، في أفراحِهم ، في أتراحِهم ، في حلِّهم وسفرِهم ، ما دام منهجُ النبيِّ ﷺ مطبّقاً في حياتِهم فَهُمْ في مأمنٍ مِن عذابِ الله ، وفي مأمنٍ آخرَ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

وفي حديثٍ طويلٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « . . . .

---

(١) أبو داود (٣٤٦٢) .

وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »[١] .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : **الغلوُّ في الدِّينِ** ، والغلوُّ هو التنطُّعُ ، ومجاوزةُ الحدِّ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، قَالَهَا ثَلاَثًا »[٢] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : « . . . . . إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ »[٣] .

إنّ هؤلاء المستكبرون ربّما طالبوا الشعوبَ المستضعَفَةَ أنْ تلعقَ جراحَها ، وأنْ تبتسمَ للغاشمِ ، وأنْ تعدّ حقَّها باطلالَ ، وباطلَ المعتدي حقًّا ، في مثلِ هذا يقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ : « . . . كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وأَشَدّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَشَدّ مِنهُ سَيكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدّ مِنْهُ سَيَكُونُ . . . »[٤] .

---

(١) أحمد (٥١١٤) .

(٢) مسلم (٢٦٧٠) ، أبو داود (٤٦٠٨) ، أحمد (٣٦٥٥) .

(٣) ابن ماجه (٣٠٢٩) ، أحمد (٣٢٤٨) .

(٤) علل ابن أبي حاتم (٢٧٥٩) ، عن أبي أمامة ، وفيه ضعف .

إننّا نريد حلاً لهذا الوضعِ المؤلِم ، فهل مِن ورقةِ عملٍ تُوضَعُ بين أيدي المسلمين ؟

أولُ نقطةٍ في ورقةِ العملِ العودةُ إلى القرآنِ والسُّنةِ للعلمِ والعملِ معاً ، لا بدّ من العلمِ لِثقلِ هذه المرحلةِ التي نحياها الآن ، حتى لا نؤذي من حيث نريدُ الإصلاحَ ، وحتى لا نفسِدَ من حيثُ نريدُ الإصلاحَ ، لابدّ مِن فهمِ العلماءِ الربّانيّين ، لا بد مِن فهمٍ صحيحٍ ، وعملٍ صادقٍ ، ولا سيّما أنّ الجهلَ قد يودي بصاحبِه إلى الشركِ ، وإلى الإفسادِ من حيث لا يشعرُ ، ولا يريدُ ، هذه النقطة الأولى في ورقة العمل .

النقطةُ الثانيةُ : تجديدُ الإيمانِ ، نحن لا نظنّ أنّ الأمةَ قد نبذتِ الإيمانَ بالكليّةِ ، ولكن نقولُ : الإيمانُ يزيدُ وينقصُ ، ويتجدّدُ ويبلى ، يقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ : « إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ ـ أي : كما يَبلَى الثوبُ ـ فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ »[1] .

نحن في أمسِّ الحاجةِ إلى تجديدِ للإيمانِ ، لأنّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ ، وينقصُ بالمعصيةِ ، نحتاج إيماناً يعرِّفنا بربِّنا ، نحتاجُ إيماناً يجدِّدُ في قلوبِنا التوكُّلَ على اللهِ ، والثقةَ باللهِ وحده ، والرجاءَ فيه وحده ، والاعتمادَ عليه وحده ، واليقينَ فيه وحده ، نحتاج إيماناً إن استقرَّ في قلوبِنا نطقتْ به ألسنتُنا ، وصدَّقته أعمالُنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى

(١) الحاكم في المستدرك (٥) عن عبد الله بن عمرو .

صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ(١) .

النقطةُ الثالثةُ : في ورقةِ العملِ التي ينبغي أن تكون بين أيدينا : الأُخُوّةُ الإيمانيةُ بالعقيدةِ الصحيحةِ ، وبالأخوّةِ الصادقةِ أقام النبيُّ ﷺ دولة :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى(٢) .

أين الأُخوّةُ الإيمانيةُ ؟ أين أمّةُ الجسدِ الواحدِ ؟ نخشى أنْ ينظرَ المسلمُ إلى وضعِ إخوانِه المؤمنين فيهزَّ كَتِفَيْه ، ويمضي وكأنّ الأمرَ لا يعنيه ، لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ ، ما دام هو آمناً في سِرْبِه ، معافىً في بدنِه ، عنده قوتُ يومِه .

النقطةُ الرابعةُ : في ورقةِ العمل : تحويلُ العلمِ إلى عملٍ ، العلمُ ما عُمِل به ، العلمُ في الإسلامِ وسيلةُ وليس غايةً ، فإنّ العلمَ إذا خالفَ العملَ بُذرتْ بذورُ النفاقِ في القلوبِ ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف : ٢-٣] .

ينبغي أنْ نحوّلَ المنهجَ العلميَّ الربانيَّ إلى واقعٍ عمليٍّ يتألّقُ في دنيانا سموًّا ، وروعةً ، وحركةً ، وبناءً ، أنْ نتحرك في هذه المرحلةِ إلى

---

(١) مسلم (٢٥٦٤) ، أحمد (٧٨١٤) .

(٢) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

الدعوةِ إلى اللهِ ، نريد أن نُسمِعَ العالَمَ كلَّه عظمةَ هذا الدِّينِ ، وحقيقةَ هذا الدِّينَ ، فقُمْ أيّها الموحِّدُ ودَثِّر العالَمَ كلَّه ببُردتِك ذاتِ العَبَقِ الطاهرِ ، قمْ وضمَّ العالَم كلَّه إلى صدرِك ، وأَسمِعْه خفقاتِ قلبِك الذي وحّدَ اللهَ جلّ وعلا ، قمْ واسقِ الدنيا كأسَ الفطرةِ ، فطرةِ التوحيدِ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها .

نريدُ الآن من كلِّ مسلمٍ غيورٍ أنْ يبذلَ الغالي والرخيصَ ، والنفسَ والنفيسَ لدِينِ اللهِ تبارك وتعالى ، فإنْ لم تعمل الآن ، وإن لم تحمل الآن همومَ أمّتِك ، وإن لم تتحرك الآن لنصرةِ دِينك فمتى تتحرّك ؟ لا تأكلْ ملءَ بطنِك ، ولا تَنَمْ ملءَ عينيك ، ولا تضحكْ ملءَ فمِك ، وكأنّ الأمرَ لا يَعنيك .

النقطةُ الخامسةُ : في ورقةِ العملِ : أنْ نجدِّدَ الثقةَ المطلقةَ بوعدِ اللهِ الصادقِ ، بأنّ اللهَ سبحانه وتعالى سوف ينصرُ دينَه ، دقِّقوا في هذه الآية :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

الآن دققوا :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥-٦]. هذا وعدٌ مِن اللهِ عزّ وجل للمستضعفين، يقول اللهُ تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم : ٤٢ـ٤٣] . إنها آيةُ تهديدٍ ووعيدٍ ، ولكنّ أعظمَ ما فيها شفاءٌ لقلوبِ المظلومين ، وتسليةٌ لخواطرِ المكْلُومين ، فكم ترتاحُ نفسُ المظلومِ ، ويهدأُ خاطرُه حينما يسمعُ هذه الآيةَ ، ويعلمُ علمَ اليقينِ أنّ حقَّه لا يضيعُ ، وأنه سوف يُقتصُّ له ممّن ظَلَمه ، ولو بعد حينٍ ، وأنه مهما أَفْلَتَ الظالمُ من العقوبةِ في الدنيا فإنّ جرائمَه مسجلّةٌ عندَ مَن لا تخفى عليه خافيةٌ ، ولا يعزبُ عن شيءٌ ، فالموعدُ يومَ الجزاءِ والحسابِ ، يومَ العدالةِ ، يومَ يُؤخَذُ للمظلومِ من الظالمِ ، ويُقتصُّ للمقتولِ من القاتلِ ، يوم تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ ، لا ظلمَ اليومَ ، ولكنّ اللهَ يمهلُ الظالمَ حتّى إذَا أخذَه لم يفلِتْه :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، أي : تبقى أبصارُهم مفتوحةً مبهوتةً ، لا تتحرك الأجفانُ من الفزعِ والهلعِ ، ولا تطرفُ العينُ مِن هولِ ما ترى .

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم : ٤٣] .

أي : مسرِعين ، لا يلتفتون إلى شيءٍ ممّا حولهم ، وقد رفعوا رؤوسَهم في ذلٍّ وخشوعٍ ، لا يطرفون بأعينِهم من الخوفِ والجزعِ ، وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ ، من كلِّ خاطرٍ مِن هولِ الموقفِ .

ما أعظمَ بلاغةَ القرآنِ! وما أروعَ تصويرَه للمواقفِ! حتى كأنك ترى المشهدَ ماثلاً أمامك .

تخيَّلوا وأنتم تقرؤون هذه الآيةَ مصيرَ الطغاةِ الظلمةِ الذين انتهكوا أعراضَ المسلمين ، وسفكوا دماءَ الأبرياءِ ، وقتلوا الأطفالَ ، وشرّدوا النساءَ ، وهدموا المساجدَ والمنازلَ ، وردموا الآبارَ ، وجرفوا المزارعَ .

تذكَّروا مَن عاثَ في الأرضِ فساداً ، ومن أذاقَ إخوانَنا في فلسطينَ صنوفَ العذابِ والقهرِ والظلمِ ، تذكّروا أنّ اللهَ فوقهم ، وأنه سوف يقتصُّ منهم ، ويرينا فيهم ما يثلجُ الصدورَ ، إن شاء الله تعالى ، ويتحقّقُ لنا وعدُ اللهِ سبحانه وتعالى :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦] . هذا الواقعُ الأليمُ الذي تحولّتْ فيه الأمةُ إلى قصعةٍ مستباحةٍ من كلّ أممِ الأرضِ أخبرنا عنه النبيُّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، كما في الحديثِ الصحيحِ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا . . . » .

تصوَّرْ منظرَ الطيورِ حينما يقدَّمُ لها الطعامُ بعدَ جوعٍ شديدٍ ، تصوَّرْ مشهدَ الطيورِ وهي تتقاتلُ ، وتتقاذفُ ليلتقط كلُّ طائرٍ نصيبَه من هذه القصعةِ ، انظر إلى الكلامِ النبويِّ بعين التدبرِ ، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ[١] .

إن نظرةً متأمِّلةً في العقودِ الماضيةِ نرى من خلالها نقلةً تراجعيةً كبيرةً

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) .

إلى الوراءِ قد تمّتْ بالنسبةِ إلى دولِ المنطقةِ العربيةِ ، ترافقت مع ظهورِ مفهوماتٍ جديدةٍ مختلفةٍ ، وخاصةً في العقدِ الماضي ، وفي مقدّمتِها مفهومُ النظامِ الدوليِّ الجديدِ ، أو ما يسمّيه البعضُ العولمةَ ، فالإسلامُ تجاوزَ منذ ظهورِه الحدودَ الجغرافيةَ ، والقومياتِ ، والثقافاتِ المختلفةَ ، ولكنه لم يُلْغِها ، بل أكّدَ على الالتزامِ بالوطنِ والأمّةِ ، بانياً ذلك على أسسٍ سليمةٍ مختلفةٍ عن مفهوماتِ العولمةِ .

ويمكنُ أنْ تكونَ العولمةُ حالةً مليئةً بالإيجابياتِ إذا استندتْ إلى ما استندَ إليه الإسلامُ من العدلِ والمساواةِ ، إضافةً إلى مبادئِه السمحةِ الأخرى .

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ الْخَثْعَمِيَّةِ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ ، وَاخْتَالَ ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ ، وَاعْتَدَى ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا ، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا ، وَطَغَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ »(١) .

* * *

---

(١) الترمذي (٢٤٤٨) .

وظيفةُ الكائناتِ الحيّةِ في التربةِ

ثَمّةَ شيءٌ لا يكاد يُصدَّقُ ، إنّ متراً مكعباً من التربةِ التي نستخدمُها للزراعةِ فيه ما يزيدُ على مئتي ألفٍ من الديدان العنكبية ، وعلى مئةِ ألفٍ من الحشراتِ فقط في مترٍ مكعَّبٍ ، وعلى ثلاثمئةٍ من ديدانِ التربةِ العاديةِ ، وعلى آلافِ الملايينِ من الجراثيمِ والكائناتِ المتناهيةِ في الدقّةِ ، وإنّ غراماً واحداً من هذه التربةِ يحوي عدّةَ ملياراتٍ من البكتريا ، وهي مخلوقاتٌ متناهيةٌ في الدقّةِ ، وهي على شكلِ عُصَيّات ، وعلى شكلِ كريّاتٍ ، على شكلِ لوالبَ ، بعضُها يحتاجُ إلى الأكسجين ، وبعضُها لا يحتاجُ ، بعضُها عارٍ ، وبعضُها له أهدابٌ تمكِّنُه من الحركةِ ، إنّ هذا المصنعَ العجيبَ ذو حركةٍ دائمةٍ يقومُ بمهمّاتٍ هي مِن أكثرِ المهمّاتِ غموضاً واستغلاقاً حتى اليوم .

هذه الكائناتُ ما وظيفتُها ؟ يعرفُ العلماءُ بعضَ الوظائفِ ، أمّا وظائفُها كاملةً فما تزالُ سرًّا حتى الآن ، هذا المصنعُ ذو حركةٍ دائمةٍ يقومُ بعملياتٍ من أكثرها أهمّيةً ونفعاً للإنسانِ .

لو أنّ الجنسَ البشريَّ كلَّه أُبيدَ عن آخرِه لبقيَتْ الحياةُ مستمرةً ، أمّا هذه الكائناتُ لو أُبيدتْ لانتهتِ الحياةُ في سطحِ الأرضِ كلّه ، فربما كان وجودُ هذه الكائناتِ أخطرَ من وجودِ الإنسانِ ، لأنّ كلَّ شيءٍ نأكلُه على نحوٍ مباشرٍ ، أو غيرِ مباشرٍ إنما أصلُه من النباتِ الأخضرِ ، تتساقطُ الأوراقُ فتأتي الرياحُ ، وتوزِّعُ هذه الأوراقَ المتساقطةَ على أنحاءِ التربةِ كلِّها ، وتأتي ملياراتُ الكائناتِ المجهريةِ فتلتهمُها ، فإذا التهمَتْها تصبحُ

غذاءً صالحاً لكائناتٍ أكبرَ منها ، هي وحيداتُ الخليةِ ، فإذا التهمَتْها تصبحُ غذاءً صالحاً لكائناتٍ أرقى منها ، هي البكتريا ، يتمّ هذا على ثلاثِ مراحلَ ، وهذه العملياتُ الحيويّةُ تحتاجُ إلى الهواءِ ، فمِن أين يأتي الهواءُ داخلَ التربةِ ؟

وظيفةُ الديدانِ أن تفتحَ أنفاقاً في التربةِ ، فالديدانُ والقوارضُ والحيواناتُ التي تعيشُ في باطنِ التربةِ مهمّتُها فتحُ هذه الأنفاقِ .

إنّ هذه الديدانَ تلتهمُ الترابَ ، وتفرزُ السمادَ ، ولا يعلمُ إلاّ اللهُ كم من الأطنانِ تنتجُها الديدانُ في الهكتارِ الواحدِ ، وكم من أطنانِ الأسمدةِ تنتجُها الديدانُ في الكيلو متر المربعِ الواحدِ ، إنّه كونٌ عظيمٌ ، وخالقٌ عظيمٌ ، وشرعٌ حكيمٌ ، فأين نذهب ؟ ما الذي يصرفُنا عن اللهِ سبحانه وتعالى ، وعن تطبيقِ أمْرِه ؟!

هذه بعضُ الحقائقِ المذهلةِ في مترٍ مكعّبٍ من التربةِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

في الغرامِ الواحدِ عدّةُ ملياراتٍ من البكتريا ، والذي يجري تحتَ الترابِ لا يعلمه إلا اللهُ ، إنها معاملُ ، وكائناتٌ ، وعملياتٌ كيماويةٌ معقَّدةٌ ، ومعادلاتٌ ، ونحن لا ندري ، ليس لنا إلا أن نقطفَ الثمارَ ، ونأكلَها ، وأن نجنيَ الخضراواتِ ، ونأكلَها ، وأن نحصدَ المحاصيلَ ، ونأكلَها ، وعلى اللهِ الباقي ، قال تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

خلقَ اللهُ الأرضَ وما فيها ، وما فوقها ، وما تحتها ، وما عليها من أجلِ أنْ نعرفَه ، فإذا عرفناه فقد حقَّقْنا الهدفَ مِن خَلقِنا ، وإن لم نعرفْه فيا حسرةً علينا ، قال سبحانه :

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] .

* * *